إشكاليّة المصطلح: من اللّغات العامّة إلى لغات الاختصاص: مصطلح "السيمياء" أنموذجا

د. حياة الخياري
(المعهد العالي للّغات بقابس- تونس)

ملخّص :

في هذه الورقة نحاول المراوحة بين النّظريّ والإجرائيّ في تناول آليات تحليل الخطاب الأدبيّ الرّمزيّ الذي تتقاطع فيه عديد العلوم لتطرح إشكاليّة المصطلح حين ينزاح عن اللّغات العامّة ويتشكّل بدلالات مختلفة في لغات الاختصاص (اللّسانيات، السيميولوجيا، الأنثربولوجيا، الأدب، التصوّف)، وقد انتقينا مصطلح "السيمياء" أنموذجا، فهو من أكثر المصطلحات التباسا إذا ما استحضرناه بسياقه العربيّ القديم.

الكلمات المفاتيح: مصطلح، لغة، ثقافة، أدب، سيمياء، رمز، علامة، دلالة.

Résumé :

Nous tentons, dans cette étude, d''associer ce qui est théorique et ce qui est procédural dans l'examen des techniques d'analyse du discours littéraire symbolique dans lequel se croisent plusieurs domaines pour poser la problématique de la terminologie lorsque celle-ci s'écarte des langues communes et se forme avec des significations différentes dans les langues de spécialité (linguistique, sémiologie, anthropologie, littérature, soufisme). Nous vons choisi l'exemple de la notion de "sémiologie (*sîmyâ'*)" car elle est l'une des notions les plus ambiguës, rattachée à son contexte arabe ancien.

Mots-clés : terminologie, langue, culture, littérature, sémiologie, symbole, signe, signification.

مقدّمة:

يضعنا الموضوع أمام طائفة من المصطلحات الحافّة بـ**"السّيمياء"** تآلفا وتباينا، اتّصالا وانفصالا، منها ما هو على علاقة بما اعتبره القدامى من "علوم السّحر والطّلسمات" ومنها ما هو منفتح على "فلسفة اللّغة" و"علم الدّلالة"، ومنها ما هو على صلة بمدارس النّقد الأدبيّ. غير أنّنا في هذا المقام نحاول التّركيز على علاقة مصطلح "السّيمياء" القديمة بالعلوم التي تناولها العرب الأوّلون ونكتفي بالإشارة إلى ما فتحته من آفاق استثمرها علماء اللّسان والدّلالة –بعدئذ- في التأسيس لبعض المدارس اللّغويّة والنّقديّة بفروعها المعنيّة بالعلاقة بين العلامة والدّلالة.

ولا يخلو الأمر من مجازفة، ذلك أنّ مصطلح "السّيمياء" (بمعناه القديم) قليل التّواتر في مباحثنا الجامعيّة الحديثة إذا ما قورِن بنظائره من المصطلحات الوافدة من مدارس اللسانيات والتداوليّة وعلوم الدّلالة من قبيل "السيميائيّة" (sémiotique) و"السّيميولوجيا"(Sémiologie). وهي من المصطلحات التي نهض عليها "علم العلامات" ، وقد أسّس له وتناوله بالبحث مجموعة من الرّواد[1]، أهمّهم على سبيل المثال لا الحصر: "جورج مونان" (G.Mounin) في كتابه:"Introduction à la Sémiologie". و"رولان بارت" (R.Barthes) في كتابه "Eléments de Sémiologie"و"قريماس" (Greimas) في كتابه:« Du sens- Essais sémiotique » . كما كانت علوم العلامات

والدّلالة موضع اهتمام من قبل المدرسة التّداوليّة، (Pragmatique) وقد عني بالبحث فيها عديد اللّسانيين من بينهم "سيرل" (Searle) في كتابه "الأعمال اللّغويّة" (Les actes de langage).

من الجدير بالذّكر-بداية- أننا لسنا هنا بمعرض مقارنة بين هذه المصطلحات الوافدة بخلفيّاتها المعرفيّة المختلفة، فقد تناولها غيرُنا من ذوي الاختصاص وأفاضوا القول فيها، وإنّما رمنا الوقوف على نقاط التّمفصل بين المنظومات السيميائيّة القديمة، مع الإشارة إلى بعض مواطن التقاء العلوم وانفصالها تماشيا مع أحد محاور هذا المؤتمر: (إشكالية المصطلح: من اللّغات العامّة إلى لغات الاختصاص).

1-مصطلح "السّيمياء" و بعض العلوم: فصلا و وصلا:

ونحن نتناول العلاقات بين العلوم تواصلا وانقطاعا، من المناسب أن نستحضر ما عرض له "رولان بارت" (R.Barthes) في "درس السّيميولوجيا" تحت عنوان "ها نحن أمام السيميولوجيا" قائلا: "ينبغي أن نذكر في البداية أنّ العلوم (على الأقل تلك التي أعرفها) ليست أبدية: إنّها قيم تعرف الصّعود والنّزول في بورصة هي بورصة التاريخ، و ربّما يكفي أن نذكر بهذا الصّدد المآل الذي آل إليه علم الكلام المسيحيّ الذي أصبح خطابا فقيرا، بعد أن كان فيما مضى سيّد العلوم."[2]

هذا ما يتسنّى إدراكه انطلاقا من رصد العلاقة القائمة لغةً بين المعنى الحقيقيّ لعبارة **"السّيمياء"**والمعاني الاصطلاحيّة الحافّة بها لا سيّما في مقارنتها بعبارة "الكيمياء" تناظرا وتباينا.

تطالعنا المعاجم العربيّة القديمة بتعريفات لجذور (س.م. ي) و (س.م. و) تتقارب في المعنى الحقيقيّ للعبارة. فممّا ذكره ابن منظور في لسان العرب: "سيمياء الوجه: حسْنه"، مستشهدا بقول الشّاعر:

"غُلاَم رماه اللّهُ بالحسنِ يافعاً *** لَهُ سيمياءٌ لا تَشُقُّ على البصر."[3]

في السّياق ذاته أورد ابن دريد في كتابه "جمهرة اللّغة": "السّيمياء ممدود، والسِّيما مقصور وهو علامة يعلِّمون بها أنفسهم في الحرب... والسّيماء والسيمياء واحد، وهي علامة يُعلم بها الرّجل في الحرب. ومنها قوله جلّ وعزّ: "مِن الملائكة مُسوّمين". (آل عمران/ 25)... وقوله تعالى أيضا: "سِماهُم في وُجوهِهم." (الفتح/29)."[4]

وبالتّدرّج قدما نحو المعنى الاصطلاحيّ، تنزاح عبارة "السّيمياء" عن متعلّقاتها الحسّية الظّاهرة باعتبارها علامة "على وجوه الأشخاص أوأجساد الكائنات (الحيوانات في معاجم أخرى)،" لتحيل على كلّ ما هو خفيّ سريّ، في هذا المقام تلتبس بعلوم السّحر والطّلسمات وقد خصّص لها ابن خلدون بابا في "المقدّمة"، تردّد بعده في مختلف المعاجم،إذ ورد في (المعجم الوسيط): "السِّيمِياءُ : السِّحر، وحاصلُه إحداث مثالات خياليّة لا وجود لها في الحسّ." في حين ذهب التهانوي في (موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم)إلى حدّ القول بأن: "السّيمياء هو علم تسخير الجنّ."[5]

على هذا الاعتبار تتحوّل "السّيمياء" من "علامة تمييزيّة" في اللّغات العامّة إلى "علامة رمزيّة" في اللّغات المختصّة، لكن من دون أن تفقد تشكُّلها الإشاريّ بما هي **"علامة" و "سِمَة" (sème)**. من ثمّ تطرح أوجه المواءمة بين العلامة والدّلالة، أي بين السمة والموسوم، وبين الرّمز والمرموز إليه.

إنّ الرّكون إلى آليّات رمزيّة في تفكيك الخطاب اللّغويّ أو النظام العلاميّ من شأنه إيجاد خيط واصل بين قطبين طرفيهما "التّشفير" (encodage) ، و"فكّ التّشفير" (décodage)، سرعان ما يؤول إلى الوقوف على تقاطع بين "علم العلامات" أو"**السّيميولوجيا**" (Séméiologie) و"**علْم السّيمياء**" الذي عرّفه ابن خلدون بأنّه: "علْم أسرار الحروف وهو المُسَمَّى لهذا العهد بالسّيمياء[...] وحدَثَ هذا العِلمُ في الملّةِ بعْدَ صَدْرٍ منها وعندَ ظهورِ الغُلاَةِ مِنَ المتصوّفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحِسّ وظهور الخوارق على أيديهم والتصرّفات في عالم العناصر."[6] أمّا مقاربة محيي الدّين بن عربي فتكاد تمحو الحدود المفترَضة بين مصطلحيّ "السّيمياء" و"السّيميولوجيا" محوا تامّا في مستوى التّعريف ولكن بعد الإشارة إلى التباس السّيمياء بالسّحر، يقول في "علم أسرار الحروف": "ويُسمَّى عندنا علم

السّيمياء، مشتقّ من السّمة وهي العلامة، أي **علْم العلامات** التي تصف ما تعطيه من الانفعالات مِنْ جمْع حروف وتركيب أسماء وكلمات."[7]

بهذا التّواشج القائم بين "علْم العلامات" و"علم الطّلسمات"، ينفتح مصطلح "السّيمياء" على محاورة مصطلح آخر من الحقل الدّلاليّ ذاته ألا وهو مصطلح "الكيمياء". وقد عرّفه ابن خلدون بقوله: "الكيمياء: علم يشرح الأعمال التي تخرج بها المادّةُ من القوّة إلى الفِعل، مثل محلّ الأجسام إلى أجزائها الطّبيعيّة بالتّصعيد والتّقطير... فَشرْح هذه الاصطلاحات وصورةُ هذا العمل الصّناعيّ الذي يقْلب هذه الأجساد المستعدّةَ إلى صورة الذّهب والفضّة هو علم الكيمياء."[8] ويردّ البعض اشتقاق كلمة (كيمياء) "إلى كلمة مصريّة قديمة هي "**سيميا**" ومعناها السّواد رمزا إلى الأرض الخصبة ومنهم من قال رمزا إلى السّر والخفاء، ودليلهم على ذلك الإشارات المعقّدة التي كان يتّخذها القدماء لتضليل العامّة، ولتفهيم التّلميذ الخاصّ فقط."[9] بذلك يكون مصطلح **"السّيمياء"** امتدادا معرفيّا لـ**"الكيمياء"**بعد تخليصها من الخصائص الحسيّة الملموسة وتفعيل الجانبين التّجريديّ و"الفيزيائيّ" للعلامات والرّموز إمعانا بها في التّعمية. من هذا المنظور أيضا اقترنت علوم السيمياء بالمعارف الرّمزيّة ملتبسة بحروف الأبجديّة، يقول ابن عربي في "مَنزل الرّموز": "وأخصّ صفات منزل الرّموز تعلُّق العِلْم بخواصّ الأعداد والأسماء وهي الكلمات والحروف وفيه علْم السّيمياء"[10].

إنّ التخفّي والاستتار، إذن، هما الجامع المشترك بين ماهيّة "السّيمياء" وماهيّة "الكيمياء". يقول الخوارزمي في باب "الكيمياء": "اسم هذه الصناعة الكيمياء وهو عربيّ، واشتقاقه من كمَى يكمِي إذا ستر وأخفى، ويقال كمى الشّهادة يكميها، إذا كتمها."[11] وهذا ما دفع ابن خلدون إلى محاولة الإمساك بخيط ناظم للبعد الرّمزيّ الحافّ بآداب المتصوّفة وكتاباتهم واصطلاحاتهم، قائلا: "ثمّ لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم إذ الأوضاع اللّغويّة إنّما هي للمعاني المتعارَفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطلحنا في التّعبير عنه بلفظ يتيسّر فهمه منه."[12]

ومهما حرص ابن خلدون وغيره من العلماء القدامى على تقريب تمثّل المصطلح فإنّ "الكيمياء"، شأنه شأن السّيمياء- يظلّ "علما" متأرجحا بين مهارات "أهل الصّنعة" و"اجتهادات أرباب الفلسفة".

بين هؤلاء وأولئك تبدو "العلامات" محاطة بالكتمان محفوفة بالسّريّة خصوصا عند الضّالعين فيها من العلماء والعارفين بها من المتصوّفة، فعلوم السيمياء –من وجهة نظرهم- عصيّة المنال، "لسِرٍّ خفيّ لا يمكن شرحه، لأنّ إفشاء سِرّ الرّبوبيّة كُفْر"[13]. مثل تلك الخصوصيّات كثيرا ما يتوقّف عندها الباحث في العلوم الإنسانيّة (لغاتها وآدابها) كلّما اتّصل الأمر بالمسافة الفاصلة بين المصطلحات المشاعة لدى "العامّة" والمصطلحات الموقوفة على "الخاصّة"، وهذا ما يوضّحه شاكر عبد الحميد في قوله: "كانت السّيمياء– وما تزال – لغة الخاصّة، "وكانت الرّموز هي وسيلة التّواصل والتّخاطب بين العالِم ومريديه، فكان لا بدّ من إتقان هذه الرّموز وفهمها، وإلاّ عُدّ الرّجُل من العامّة وليس من الخاصّة."[14]

بهذا المعنى لم تعد اللّغة مجرّد نظام "علاميّ" قائم على الصّلة بين الكلمات والأشياء، بل تستحيل مكوّناتها أجزاء في نسق من العلاقات المضمرة الخفيّة التي لا تمتّ بصلة إلى العلاقات المعياريّة المألوفة القائمة بين العلامات وما حفّ بها من دلالات إن حقيقة أو مجازا، هنا يحدث التّمفصل ما بين اللّغات العامّة واللّغات المختصّة. كأنّ مصطلح "السّيمياء" قد تحوّل من الدّلالة التصريحيّة (dénotation) إلى (الدلالة الحافة/ الإيحائيّة) (connotation) وصولا إلى الدّلالة المخاتلة/ المراوغة حيث تنفصم عرى التواصل (المنطقيّ) بين الدّال والمدلول، في هذا المقام يتسنّى لنا الحديث عن **"دلالة سيميائيّة"** بالمعنى العربيّ القديم للعبارة، في منطقة معرفيّة معتمة. في نقطة التمفصل تلك يعود مصطلح السّيمياء إلى الالتحام بمصطلح "الكيمياء" تلابسا وتداخلا، لكن ليس في مستوى التنظير المعرفي بل في مستوى التّوظيف الرّمزيّ في مناطق لغويّة حينا ، ماورا- لغوية حينا آخر، وإنشائيّة أحيانا كثيرة.

أمّا ما لاحظناه انطلاقا من تمحيصنا النّظر في مصنّفات القدامى، فإنّه لا يرد ذكر للسيمياء وعلومها إلاّ وكانت العلامة المستحضرة على صلة بالحروف الأبجديّة برموزها ملفوظة ومكتوبة ومرقومة (الرّقم)، على هذا الاعتبار انتقينا رموز الحروف العربيّة نموذجا نجري عليه مقاربتنا للخطاب السّيميائي في منظومات رمزيّة تتعالق في توظيفها للحرف بما هو **"سمة وعلامة"** واقعة تحت طائلة علوم السيمياء والكيمياء بمعانيهما القديمة المتوارَثة عن العرب ومن سبقهم من أمم وحضارات.

فما السّبيل إلى هتك حجب العلامة الماثلة على غير قياس؟

وبأيّة آليّات يتوسّل الخطاب المعرفيّ لكشف سرّ الرّموز المشفَّرة "سيميائيّا"؟

ثمّ إلى أيّ حدّ يجوز الحديث عن "صفويّة" الإبداع و"نخبويّة" التلقّي كلّما حضر مصطلح "السّيمياء"؟

2- "السّيمياء" وآليات تفكيك العلامة الرّمزيّة: نماذج من الخطاب الأدبيّ المُشفَّر (سيميائيّا):

إنّ التّحوّل من المعنى اللّغويّ إلى المعنى الاصطلاحيّ لعبارة السّيمياء من "العلامة" بمعنى السّمة "الصّوريّة" إلى السّيمياء بمعناها الملتبس بالرّموز اللّغوية (أشكالا وأرقاما وطلاسم) من أهمّ الدّوافع المؤسّسة لأرضيّة الخلاف بين اللّغويين القدامى في مقاربتهم للحرف العربيّ من القول باعتباطيّة المواضعة باعتبار الحروف مجرّد علامات معزولة عن المرجع، إلى القول بالقصدان المبنيّ على محاكاة بين العلامة والدّلالة (ابن جنّي في كتابه "الخصائص" مثلا) وصولا إلى علماء السّيمياء الذّين ضيّقوا دائرة المواضعة فحصروها في خاصّة الخاصّة، إذ ألّف ابن عربي "كتاب اصطلاح الصوفيّة" يعرّف (المتصوّفة مثلا يرون أنّ "الحرف هو اللّغة أوما يخاطبك به الحقّ (اللّه) من عبارات."[15] بل لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ لهذا الخلاف تعلّقا بما هو ماثل بين منظّري "اللّسانيّات" ومنظّري "السّيميولوجيا" ، وقد ردّه البعض إلى خلاف في آليات الخطاب بين الولاء لـ"الصورة" والولاء لـ"الكلمة"، إذ يقول في باب **(سيميولوجيا الصّورة أم سيميولوجيا اللّغة؟)**: "..والحقّ أنّ هذا الاعتراض يعكس خلافا قائما بين فريقين. يقيم أحدهما حدودا فاصلة بين لغة الصّورة ولغة الكلمة، معتبرا الصّورة "إمبراطورية مستقلّة ومنغلقة على نفسها"، نافيا إمكانيّة تواصلها مع أنظمة دالّة أخرى ولاسيّما النّظام اللّغوي الذي ينتفي فيه الشّبه بين العلامة و مرجعها، فإذا بالعلامة الرّابطة بينهما محض اعتباط بينما تحكم المماثلة علاقة الصّورة بموضوعها. أمّا الفريق الثاني فلا يعتبر عالم المرئيّات غريبا عن عالَم الكلمات، ولا ينكر وجود تقاطع بين الصّورة و اللّغة إن في الخصائص أوفي الوظائف. فخاصيّة المماثلة لا نعدمها في اللّغة، والدّليل على ذلك وجود قسط من الألفاظ تحاكي أصواتها ما تدلّ عليه. كما أنّ قيام الصّورة على مبدأ المماثلة لا يبطل اشتراكها واللّغة في صفة المواضعة ولا يجرّد المماثلة من فكرة النّظام."[16]

يردّنا مثل هذا السّجال إلى مراجعة القول باعتباط العلامة اللّغويّة. ذلك أنّ أهمية العلامة اللّغويّة حسب "تزفتان تودروف" (T.Todorov)–مثلا- "لا تكمن في وجودها الزمانيّ أوالمكانيّ على اعتبار خطيّة العلامة اللّغويّة صوتا وصورة. بقدر ما تكمن في الانتظام والتّناغم والتّناسق. إنّ أهمّ ما في الأمر ضرورة استبعاد الصّدفة وبيان أن لا شيء في اللّغة طارئ أوعرضي، وأنّ "الاعتباطيّة" ليست سوى علاقة ما تزال مجهولة."[17]

إنّها محاولات للانزياح عن "اللّغة الواصفة" إلى "اللغة المفكّرة"، وشتّان بين التوصيف والتّوظيف.

غير أنّ ميزة الخطاب في السّيمياء القديمة تفتّت النّسق وانفراط عقد "النّظام" بفعل غياب المواضعة بمعناها المعياريّ المتعارف، لذا ارتأينا في هذا السياق تقديم نموذج من الخطاب السيميائيّ المشفّر محاولين الإمساك بضفيرة "العلامة" الرّمزيّة في منظومات مختلفة جاعلين اللّغة منطلقا متّخذين الحرف العربيّ دليلا خصوصا وأنّ أكثر التعريفات تواترا هي اعتبار "السيمياء" علم أسرار الحروف، متدرّجين من الدلالة الأكثر التصاقا بالعلامة إلى أشدّها غؤورا والتباسا.

لعلّ العلامة "السّيميائيّة" وحدها كفيلة بكشف العلاقة الغائيّة بين النّسبيّ والمطلق، وبين الطّبيعيّ البشريّ والماورائيّ الخفيّ. وأيسر السّبل أن ننطلق من" المصرّح به"، وهو في الحرف العلامة الرّامزة، لفهم " المسكوت عنه" وهو المعنى المرموز إليه. وهذا ما ينظّر له التوحيدي قائلا :"يا هذا، خُذ من التّصريح، واستيْقِنْ أنّه لا **حَرْف**، ولا

كلمة، ولا **سِمَة**، ولا **علامَة**، ولا اسْمَ، ولا رَسْمَ ، ولا **ألِـف**، ولا **يـاء**، إلاّ وفي مضمونه آية تدلّ على سرّ مطويّ، وعلانيّة منشورة، وقدرة بادية وحكمة مخبورة*، وإلهيّة لائقة وعبوديّة شائقة، وخافِية مشوّقة، وبادية مُعوِّقة."[18]

بين الثّقافة والطّبيعة، حاول اللغويّون القدامى أن يلتمسوا سندا معياريا يخوّل المزج بين كيمياء الكون وسيمياء الأبجديّة، ففسّروا الحياة والوجود بحروف الكتابة وحركات الشّكل والنّقط وجعلوا عالَم الكتابة والنقط مطابقا لعالَم الحياة بحركاتها وسكناتها وألوانها. وفي ما أورده ابن النّديم عصارة جهد اللّغويين في بيان فضل اللّغة العربيّة إذ نقل عن "سهل بن هارون" صاحب بيت الحكمة قوله: "عدد حروف العربيّة ثمانية وعشرون حرفا على عدد منازل القمر، وغاية ما تبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النّجوم السّبعة. قال وحروف الزّوائد اثنا عشر حرفا على عدد البروج ألاثني عشر. ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف وهي أربعة عشر مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض، وأربعة عشر ظاهرة لا تُدغم مثل بقيّة المنازل الظّاهرة. وجعل الإعراب ثلاث حركات: الرّفع والنصب والخفض لأنّ الحركات الطبيعية ثلاث حركات: حركة من الوسط كحركة النّار، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض، وحركة على الوسط كحركة الفَلَك... وقال الكندي لا أعلم كتابة تحتمل من تجليل حروفها وتدقيقها ما تحتمل الكتابة العربيّة."[19]

ينطوي استغراق اللّغويّين والفلاسفة في الرّبط العِلّيّ بين عالَم الأبجديّة وعالَم الوجود الخارجيّ على إقرار بالأبعاد القصديّة للعلامة اللّغويّة، وهو ما قامت عليه بعض النّظريّات اللغويّة الحديثة في تجديفها ضدّ مبدأ اعتباط العلامة اللغويّة ودعوتها إلى ضرورة الانتباه إلى الملامح الغائيّة الجامعة بين نظام العلامات في جهاز اللّغة ونظام الكائنات في فضاء الطّبيعة، بالاستناد إلى المقاربة الرّقميّة للحروف. وهذا ما انتبه إليه "تودوروف" (Todorov) في مقاله "العدد والحرف والكلمة"*(Le nombre, la lettre, le mot)* وقد انطلق فيه من قراءة لنظريّة " فلمير كلبنكوف" (Vélimir khlebnikov)الذي يرى أن "لا شيء اعتباطيّ، كلّ شيء يجب أن يكون مبرَّرا، وأفضل مبرِّر هو الطّبيعة ذاتها."[20] وليست مقاربة "كلبنكوف" للّغة سوى طرف في نظريّته حول "التّناسق الكَوْنيّ"[121] (L'harmonie universelle)، ومكانة الحساب الكُلّيّ منه، حين يقرّر بأنّ "كلّ مفردات اللّغة مشكَّلة من حروف عددها ثمانية وعشرون (28) حرفا، والتي ترتدّ طبيعيّا إلى العدد ثمانية وعشرين (28) المتناغم مع عدد أيّام الشّهر."[22]

ولا ينسى (تودوروف) أن يستطرد حتّى ينبّهنا إلى أنّ (كلبنكوف) يقيم نظريّته في التّناسق بين نظام العدد في اللّغة ونظام العدد في الطّبيعة في حين أنّ اللّغة الرّوسية تتضمّن خمسة وثلاثين (35) حرفا لا ثمانية وعشرين (28) حرفا. لذلك يتساءل تودوروف: "هل يجدر التّدقيق أنّ نظريّة "كلبنكوف" ترتدّ إلى مستوى معرفيّ مختلف عن ذاك الذي ترتدّ إليه النظريّات اللّسانيّة المعاصرة ؟ "[23]، وينتهي "تودوروف" إلى "فرضيّة وجود مبادئ سابقة على نظريّة كلبنكوف، وإن كان هذا الأخير يجهلها."[24]

بيد أنّنا لا نرجّح فرضيّة أن ينظّر "كلبنكوف" لمبادئه دونما معرفة بالأصول الأساسيّة التي ترتكز عليها، كما أنّ اختياره لا يمكن أن تنبني على محض الصّدفة، وإلاّ لماذا يصرف اهتمامه إلى خصوصيّة ما سمّاه "التناسق الكونيّ" في العدد (28) بالذّات دون غيره من الأعداد لو لم يكن على دراية بالنّسق المعرفيّ الذي احتضن ذلك النّظام العلاميّ. لذا لا نستبعد اطّلاعه على ما قام به العديد من المستشرقين الرّوس من ترجمة للموروث الفلسفيّ العربيّ الإسلامي، لا سيّما وأنّ العدد ثمانية وعشرين (28) ينسجم مع الحروف العربيّة دون سواها من اللّغات، إذ الحروف اللاتينيّة، كما هو معلوم، ستّة وعشرون (26) حرفا، والرّوسيّة خمسة وثلاثون (35) حرفا. بل لعلّ تسمية "الحساب الكُلّيّ/ المعمّم" (Calcul généralisé)، والتي أسّس عليها "كلبنكوف" نظريّته حول التناغم الكونيّ الذي تستوعبه الحروف الثمانية والعشرون، ليست سوى ترجمة لما سمّاه العرب "حساب الجُمَّل"أو"الحساب الأبجديّ" ، بإجماله للموجودات الكونيّة واستيعابه لها.

1

لهذه الاعتبارات وغيرها، كان للفلاسفة العرب السّبق في الاستدلال على فضل لغتهم على سائر اللّغات، فـ"كانت اللّغة العربيّة تمام اللّغة الإنسانيّة وختام صناعة الكتابة، ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيّرها ولا يزيد عليها ولا ينقصها. وفي كلّ أمّة وبكلّ إقليم وجزيرة وموضع، أهلُ خطٍّ وحروف وكتابات وعلامات يجمعها كلّها هذه الثمانية والعشرون حرفا."

غير أنّ الالتفات إلى العنصر الثقافي الذي لابس نشأة الحرف العربي وواكب تطوّره يكشف عن وجه آخر للأبجديّة العربيّة لم يتوقّف عند مصنّفات علوم الفلك والسّيمياء والطّلسمات والتصوّف فحسب، بل اقتحم أوائل المعاجم أيضا، إذ استهلّ ابن منظور معجمه "لسان العرب" بباب في "ألقاب الحروف وطبائعها وخواصّها" (المقصود طبائعها الكيميائيّة وخواصّها السيميائيّة) معتبرا أنّ الاستهانة بعناصرها السّيميائيّة نابع من جهل بها، مستشهدا بقول الزّمخشري: ".. "وأيّ جهل أعظم من جهل من أعرَض عنها، ولم يذهب به وَهْمُهُ إِلَى تَدَبُّرها والاعْتِبَار بِهَا.."[25]

من ثمّ تستقيم للعلامات وظيفتان: وظيفة تمييزيّة مشاعة للعامّة، ووظيفة كيميائيّة سيميائيّة لا يدركها غير الخاصّة.وبهذا المعنى حضرت "الكيمياء" عند الفلاسفة والمتصوّفة والشّعراء، مثلما حضرت عند روّاد التّجربة الشّعريّة السّرياليّة، ومن تلاهم من شعراء الرّمزيّة العربيّة. في هذا السياق يشرح الدكتور شاكر عبد الحميد أوجه التلاقي بين الكيمياء والشّعر، فيقول: " وكذلك الشّعر، فلا بدّ له من قدرة كبيرة لدى الشّاعر على صياغة الرّموز وابتكارها، ولدى القارئ والمستمع على فهمها وتصوّرها.. إنّ الشّعر يرمز ولا يعلن، وهذا التّركيز على عالَم خفيّ مستور يجب كشفه من خلال رموز تبطن غير ما تُظهر، هو صفة مشتركة بين الكيمياء والشّعر."[26]

غير أنّ ما يميّز الشّعر الحَرْفيّ عن الشّعر الرّمزي الكيميائيّ الذي خصّه شاكر عبد الحميد بتلك الحظوة هو أنّه جعل من الحرف عنصرا كيميائيّا وعنصرا شعريّا في آن معا، فالرّمز هو الوسيلة والغاية، والحروف جماع عناصر ممتزجة ومنصهرة، لكنّها قد تتحوّل أيضا إلى أنابيق كيمياء وأدوات سيمياء. أمّا الشّاعر والقارئ فصيدلانيّان يجتهدان في استقطار الدّلالة الكفيلة بمنح الأشياء والعوالم أشكلا وإيقاعات وطعوما جديدة، مستجيبين بذلك للمعنى الحقيقيّ لعلم العلامات أو علم السّيمياء.

هنا يكمن موطن التّقاطع الأبرز في توظيف العلامة السيميائيّة بين كلّ من الحروفيّة الصّوفيّة القديمة والحروفيّة الشّعريّة المعاصرة و"الحروفيّة" السّرياليّة الغربيّة، ومن أبرز روّادها "رامبو" (Rimbaud) الذي يقول عنه خليل حاوي: "والحقيقة أنّ رامبو تأثّر بفكرة الكيمياء كعلم تجريبيّ لانتشاره بأوروبا، هذا العلم الذي يغيّر الأشياء ويبدّلها من حال إلى حال، كما أنّه تأثّر بالأدب الصّوفي والفكر الدّيني والشّعوذات السّحريّة. كلّ هذا فتح أمامه الباب ليكتب قصيدة بعنوان «كيمياء العبارة» *(Alchimie du verbe)* ويقول فيها:

« اخْترعْتُ لَونَ الحُروف الصّوْتيّة :
- أسْوَد، أبيَض، أحْمر، أزْرق، أخْضَر
- ضَبطْتُ شكْلَ كُلّ حَرْف ساكن وحَرّكتُهُ بإيقاعَات غَريزيّة ،
أوْهمْتُ نفْسي باخْتراع عبارَة شعْريَة سهْلة الوُصول بيْن يَوْم أو آخَر ،
إلى جَميع الحَواسّ. كنتُ أحْتفظ بالشّرْح...
كانَ للسّلَفيّة الشّعْريّة نَصِيبٌ وَاف منْ كِيمْيائي لْلعبَارَة..»[27].

لقد التقط الشعراء العرب تلك المؤثّرات السّرياليّة، فدفعتهم إلى تمحيص النّظر في علوم الكيمياء بأصولها القديمة باعتبارها فرعا من علوم السّيمياء بأبعادها الفلسفيّة والصّوفيّة.

إنّ نقطة التّقاطع تلك هي التي أسّست لنظرنا في كيمياء الحرف، وقد احتفى بها أرباب علوم السّيمياء بعد أن أوغلوا بها في فضاءات رمزيّة تجريديّة أعمق. فعلى عاتق الكيمياء وضعوا مهمّة إعادة ترتيب العالَم مؤكّدين على القوى الخفيّة الكامنة في الحروف الأبجديّة، وقد خصّها ابن خلدون بباب في تاريخه عنونه بـ"الأسرار الخفيّة من جهة الارتباطات الحَرْفيّة"، وفيه صنّف "قوى الحروف ثلاثة أقسام: الأوّل وهو أقلّها قوّة تُظهر بعد كتابتها، فتكون كتابتُه لعالم روحانيّ مخصوص بذلك الحرف المرسوم، فمتى خرج ذلك الحرف بقوّة نفسانيّة وجمْع همّةٍ، كانت

قوى الحروف مؤثِّرة في عالم الأجسام. الثّاني قوّتها في الهيئة الفكريّة وذلك ما يصدر عن تصريف الرّوحانيّات لها، فهي قوّة في الرّوحانيات العلويّات، وقوّة شكليّة في عالم الجسمانيّات.."[28]

لعلّ ما ذكره ابن خلدون في "الأسرار الخفيّة في الارتباطات الحرفيّة" يتقاطع مع ما ذكره في "علم الكيمياء" من حيث اكتساب كلّ منهما لطاقات كامنة تنسجم تماما مع مقوّمات "السّحر والطّلسمات" بما هي عمليّة تحوّل وتحويل من "الكفاءة" (compétence) إلى "الإنجاز" (performance)، ومن "وجود بالقوّة" إلى "وجود بالفعل".

إنّها سلطة العلامة، التي طالت جلّ ما متّ للسيمياء القديمة بصلة، ورغم اختلاف الخلفيّات المعرفيّة هو ذا "بارط" (R. Barthes) يقول: "لقد كان موضوع هذه "السّيميولوجيا" الأولى إذن هو اللّسان و قد عملت فيه السّلطة عملها."[29]

لعلّ اقتحام شعراء الحداثة لرمزيّة الحرف نابع من ثقتهم بسلطة العلامة ووعيهم بالخلفيّة الطّلسميّة للعنصر الكيميائيّ ولطاقاته الإنجازيّة، فضلا عن إحاطتهم بمصنّفات السّيمياء القديمة،كما هو الشأن بالنسبة إلى أدونيس الذي دأب على توظيف عبارة "السّيمياء" بمعناها المتوارَث عن مصنّفات علوم الفلك والتصّوف، وكثيرا مّا يرتبط توظيفه الرّمزي للمصطلح مع عمليّة تشفير لحال "البلاد العربيّ ومدنها". فتستقيم قراءة "العلامة-المدينة" عمليّة تنزيل للعنصر اللّغويّ من فضائه السّيميائي التجريديّ إلى الحيّز الطبيعيّ الملموس الذي يتحسّسه الشّاعر في تراب الأرض ومائها وهوائها ولكن انطلاقا من طلاسم الأبجديّة، وهو المنطلق الرّمزي الأساسيّ الذي انتقاه أدونيس لتشفير المدن العربيّة في شكل حروف مرتّبة ترتيبا أبجديّا، بدأها بنصّ "مِن دفاتر الفَلَك"، استهلّه ببيان شعريّ يقول فيه:

" **سيمْيـــائيٌّ**
لَقيطُ النّجُوم
اسْمُه أبْجَد
صَديقُ المُتنبّي ونَجِيٌّ لأهْوائه.
يَعيشُ عَلى قارعَة الهَواء في سَفَر دَائم ،
يَقْرَأ دَفاتِرَ الفلَك ويُؤَرِّخ للْمُدن."[30]

إنّه السّفر الجديد القائم على قراءة الأرضيّ في نقطة تقاطع بين التراب والهواء يتشرّبها الحرف الأبجديّ المنتصب على قارعة المدن راصدا وضعها الآنيّ. في حين توجّهنا عبارة "سيميائيّ لقيط النجوم اسمه أبجد" إلى اتخاذ المنظومة الرّقمية في علوم الفلك آلية من الآليات المتاحة لفكّ شفرة العلامات الرمزية بالإضافة إلى السّطر الأخير "يَقْرَأ دَفاتِرَ الفلَك ويُؤَرِّخ للْمُدن".

بهذا يعدّ الملمح "السيميائيّ" في اللّغة الشعرية منفذا لإثراء القصيدة الحديثة، بواسطته حاول الشعراء اجتناب السقوط في الخطاب الإيديولوجي المباشر الذي واكب الثورات والهزائم العربيّة، فجعل القصيدة أقرب إلى خطاب سياسي مفرغ من أبسط المقوّمات الفنيّة.

إنّ أيّة قراءة نقديّة ترمي إلى فكّ شفرة الرّمز الحرفيّ المشفّر رقما لا يمكن أن تتمّ بمعزل عن المنظومة الرّقميّة للحروف العربيّة بشقّيها البرهانيّ والعرفانيّ ممثّلين في حساب الجُمّل وعلم الجفر. فقد تعامل العرب القدامى مع حساب الجُمّل بما هو رموز رقميّة للحروف خاضعة للقياس، لذلك سمّوه أيضا "الحساب الأبجديّ"، وحسب ابن خلدون فإنّ "دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعيّة ولا عقليّة، وإنّما هي بالتّواضع والاصطلاح الذي يسمّونه حساب الجُمّل."[31]

أمّا علْم الجَفْر فهو "طريقة التنبّؤ بجعل الحروف الأبجديّة تدلّ على أعداد.. ويقول عنه أصحابه ، إنّ فيه الحوادث المستقبلة إلى قيام السّاعة."[32] ويختلف عن الجمّل في كونه خاضعا للكشف لا للقياس، وهذا ما يوضّحه ابن خلدون بقوله: "فأمّا سرّ التّناسب بين هذه الحروف والأعداد، فأمر عسير على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات،

وإنّما مستندهم فيه الذّوق والكشف. قال البوني: "ولا تظنّ أنّ سرّ الحروف ممّا يُتوصّل إليه بالقياس العقليّ وإنّما هو بطريقة المشاهدة والتّوفيق الإلهيّ."[33]

مع ذلك فإنّنا نرمي ، من وراء ملامسة علوم "السّيمياء" القديمة، إلى اختبار مدى اكتفاء القصيدة الرّمزيّة بسندها الثقافيّ العربيّ شكلا ومضمونا، منطلقين من فرضيّة أنّ ما شُفِّرَ فلكيّا وصوفيّا و"طلسميّا"(أي سيميائيّا) لا يمكن أن تفكّ شفرته إلاّ بآليّات التشفير ذاتها، بل لعلّنا لا نستبعد أن تكون ثنائيّة "التّشفير" (encodage)،و"فكّ التّشفير" (décodage) في أصلها الاصطلاحيّ، أي "الشّفرة"، على صلة بعبارة "الجفر"/ "الجفرة"، لذا نجوّز لأنفسنا استعمال عبارة "المُجفّر" رديفا لعبارة "المُشفّر" رقما.

نسجا على منوال أجداده من المتصوّفة، واستلهاما للحظة مكاشفة الغيب وما يخبّئه للمدينة، يعمد أدونيس إلى قراءة كتاب "قصّابين" المكان، عبر إنبيق الفلك في قصيدة "قصّابين ـ الكتاب" :

" أُوهْ ، لِلشّاعرِ العَاشِقِ المُشَرَّد !
سيمْيَائيٌّ صَديقُ الأفْلاَك . يَنْصبُ إِنْبيقَهُ عَلى قارعَةِ المُدن ،
و يُعالِجُ الهَوَاء !
اِفْهَمْهُ ، أيّها العَصْرُ! لا يَستطيعُ أنْ يَكْتُبَكَ ، لا يَسْتطيعُ أنْ
يَكْتُبَ نَفْسَهُ إلاّ بأبجديّةِ الحُرّية."[34]

وحتّى تُكتب أبجديّة الحريّة في عصر أمّيّ لا يفقه سوى لغة الموت والقتل لا بدّ من القفز على الزّمان والمكان، على التّاريخ والجغرافيا باتّجاه زمن البعْث المنتظر لهويّة "تجيء من بيت شيعيّ يرث الفاجعة، ولكنّه ينتظر فرحا يجيء."[35] حالٌ تذكّرنا بجهود بعض الشّيعة في التنبّؤ بسنة قيام الإمام المهدي، وقد نظَمَ فيها أحد شعرائهم بحروف "مجفّرة":

" إذا دَارَ الزّمانُ علَى حُرُوفِ *** (بِسْم اللّه) فالمَهْدِيُّ قَامَا."[36] (الوافر)

جوهر الجَفْر، إذن، هو أبجديّة سؤال فلك الغيوب عن نقطة أمل وحرف انعتاق، ومِن ثمّ الدّخول في حال ترقُّب وانتظار. أمّا شاعر العصر فلن ينتظر دورة الفلك لأنّ لحظته عقيم وزمنه ميّت، فأبجديّته بين يديه وحدها تتولّى الخلاص، بل لعلّه إلى عكْس المعادلة الفلكيّة أحوجُ، بحيث تتولّى الحروف استلام دفّة القيادة لتفعل هي في دورة الزّمن عوض أن تكون منفعلة بها. في هذا المقام تدخل الحروف المقطّعة في بفواتح بعض السّور القرآنيّة طرفا فاعلا في منظومة السيمياء، بل لعلّها من العلامات الأشدّ استعصاء

ممّا لا شكّ فيه أنّ الرّموز الحرفيّة هي أشدّ الرّموز الشعريّة استعصاء على المحاصرة لأنّ الأبجديّة تتمنّع عن أن تشرح ذاتها وتهبَ سرّها، لذا فنحن نعي جيّدا أنّنا نمشي على أرض زلقة بمجرّد أن نطأ عتبة حروف القرآن المجفّرة أرقاما وتواريخ، أفلاكا وأزمنة، لكنّنا نحاول أن نلوذ بالسّياق الشعريّ الذي استوعب حروف (ألف لام ميم) عسانا نتبيّن تجلّيات الانزياح عن الاستعمال القرآنيّ حتّى نستوضح مبرّراته وأبعاده الرمزيّة. يقول أدونيس في خاتمة مقطوعة شعريّة عنوانها"والفضاء يَنسج التّأويل" :

"السَّلامُ لِلْفَضَاءِ الذي يُؤرِّخُ لَنَا
السَّلام لِلشُّهُبِ التِي تُؤَسِّسُ الفَضَاء، -
أَلِف لام ميم
ذَلكَ الكِتَابُ
لا رَيْبَ ، لاَ رَيْبَ."[37]

غير خاف التّناصّ مع فاتحة سورة البقرة: [آلم. ذلكَ الكِتابُ لا ريْبَ فيهِ هُدًى للْمُتَّقِينَ.][38] ممّا يضعنا حيال "الكتاب" المكنوف في فلك الغيوب الوارد في سياق قَسم ضمن الآية: [والطُّورِ. وكتابٍ مَسْطورٍ. في رِقٍّ مَنْشورٍ.][39]وفي صميم كتابة الغيب المؤمَّل تتنزّل "ألف لام ميم" الكتاب الشعريّ. لقد اختار أدونيس أن يؤسّس

فضاءه الشعري من شهب حروف "ألف لام ميم"، ويلفتنا أوّل سطر "السّلام للفضاء الذي يؤرِّخ لنا". فهل لحروف (**آلم**) من أسرار دعت أدونيس إلى تحيّة الفضاء الذي يتولّى عمليّة التأريخ المُجفَّر أحرفا قرآنيّة؟

إنّ الإجابة تتوقّف على المضمون الرّمزيّ لسيمياء الحروف المشفّرة أرقاما، وعلى مرجعيّة الفلك المتّصلة بعلم الجَفْر. ولهذه المرجعية الصّوفيّة قراءة مخصوصة لحروف (آلم) من سورة البقرة. فالحروف الفواتح للسّورة إنّما ترمز عندهم إلى "زمان فتح بيت المَقْدس."[40]ويقابل تلك الحروف تاريخ سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة هجريّة (583 هـ)، حسب ما وضّحه ابن عربي بحساب "الجزم الصّغير".

لسنا ملزمين بعدئذ بالبحث في مدى مطابقة نتيجة التّأويل لمقاصد الشّاعر ولا لخلفيّته المعرفيّة أوالإيديولوجيّة طالما توفّرت قرينة التناصّ ووجه الاحتياج إليها في الظّروف الحافّة بلحظة القراءة. فبين التّاريخ الرّاهن المعيش والتّاريخ المجفَّر حاء حلم، وحاء حريّة، وحاء حرف، تكمن المسافة الفاصلة بين "عِلْم اليقين" و"عَيْن اليقين"* من وجهة نظر صوفيّة، وهي زاوية التّموضع التي احتلّها الحرف القرآنيّ مع أدونيس. إنّها زاوية استشراف الحلم التي جعلته يختار "آلم ذلك الكتاب لا ريب." كلمات يختم بها ديوان "والفضاء ينسج التّأويل" المختصّ برموزه الصّوفيّة بمشاربها المختلفة: سيميائيّة وكيميائيّة وقرآنيّة، حتّى كأنّ الفضاء التّاريخيّ المُرمَّز حروفا هو ترجمة لعنوان الدّيوان وعصارة لقصائده.

إنّ الحرف "المجفّرَ" زمنَ حرّية هو بؤرة استراتيجيا التّناصّ مع الحرف القرآنيّ حسب ما آلت إليه القراءة المستندة إلى مسلَّمة قوامها أنّ ما شُفِّرَ سيميائيّالا ثُفك شفرته إلاّ بالمعيار نفسه. وليس المقام مناسبا لشرح سبيل المرور من العلامة الحرفيّة إلى الدّلالة الرّقميّة في علم الجفر لأنّ المتصوّفة، مثلما وصفهم ابن خلدون،: "أصحاب كشف وأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنّه وجدانيّ عندهم، وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه."[41]

تظلّ حروف السّيمياء المُجفّرَة تواريخ ومواقيت غيبيّة رهن كشوفات وفيوضات تقصر دونها آليّاتنا "العلميّة"، لأنّها لا تتوقّف عند العلامة ذاتها بل تشمل النّسق المعرفيّ الذي أنتجها في منطقة "ما ورا لغويّة" شديدة العتمة، على صلة بمنظومة العرفان الصّوفيّ وتفسيرهم الإشراقيّ الباطنيّ للسّور القرآنيّة ككلّ. أمّا استشرافنا "الوضعيّ الظّاهريّ" ، فحسبه أن يتوقّف بنا عند حروف أخرى تعضد رمزيّة "آلم" سورة (البقرة) إلى الفتح، ألا وهي دلالة "آلم " سورة (الرّوم) على النّصر في آياتها الأولى: [آلم. غُلِبَتِ الرُّومُ. في أدْنَى الأرْضِ وهُمْ مِن بَعْدِ غلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ. في بضْعِ سنينَ للَّهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويوْمئِذٍ يَفْرَحُ المؤمِنونَ.][42]

من خلال الرمزيّة الرقميّة لـ"آلم"، يتواشج فضاء التاريخ (الفتح والنّصر) مع فضاء الجغرافيا (بيت المقدس)، ويتفاعل المعطى الرّمزي الزّمانيّ مع المعطى الرّمزيّ المكانيّ ليكشف عن ذلك الخيط الرّفيع الرّابط بين كلّ من الماضي والحاضر والمستقبل، ثمّ بين ما تستبطنه الأبجديّة في حروفها من "ألَم"، وما يخفيه الفلَك في دوراته من "أمَل" محوره استيضاح هويّة ملتبسة، واستعادة حريّة مستلبة، لمدن "مومياءيّة" تُحَوِّم حولها أشباح الموت.

في هذه اللحظة المشبعة عدميّةً، توضع العلوم الإنسانيّة واللّغات المختصّة على المحكّ:

كيف بإمكان "الكيمياء" أن تُحْيِيَ المومياء؟

و مِن أين لـ"السّيمياء" بحَرْفٍ قادر على حَرْفِ مسيرة الدّمار؟

إنّ أيّ تناول لموضوع "العلامة" في مستوياتها الدّلاليّة المخاتلة لا يمكن أن يؤول إلى أجوبة نهائيّة عن أيّة أسئلة، لأنّ "السّيمياء" لا ترأبُ ثلمةً إلاّ لتثغر ثلمات.

خاتمة:

إنّ الشّعر الذي رأى فيه "ملارميه" (Mallarmé)"لغة عُليا" (haut langage)هو الفضاء الأنسب لما سمّاه المتصوّفة "الحروف العاليات"[43].

حينئذ تحتفظ العلامات بمدّخرات لاستشراف رؤى لا متناهية للعالَم، وأقصى ما تفصح عنه الحروف تأكيدها على كونها لغة عليا " لم تُقَلْ بعدُ..":

" كنّا حُروفًا عَالياتٍ لم تُقَلْ *** سَاكناتٍ في ذُرَى أعلى القُلَلْ."[44] (الرّجز)

على تخوم الصّمت يقف العلامة المشفّرة سيميائيّا في القصيدة الرّمزيّة المعاصرة لتجمع بين "اللاّقول" (Le non-dit) و"اللاّمعنى" (Le non- sens)، وتكشف عن ميزة "الادّخار" (L'épargne) التي تضمن استشرافا للممكن بقدر ما توفّر "متعة اللاّمعنى" (Le plaisir du non- sens)[45].

بذلك تستحيل العناصر الرّمزيّة المبطّنة غايةً يتقصّدها المبدع ويلتمسها بخبراته المخصوصة وفق دوافع فنّية وذاتيّة وموضوعيّة. فيستقيم الرّمز السيميائيّ تجويفةً في جسد النصّ يفتحها الشّاعر، لكنّ القارئ الذي يتأوّلها ليس أفضل حالا من الشّاعر حين يسعى إلى الخلق مدركا أنّ سعيه محكوم بالخيبة لا محالة، طالما أنّ اكتمال عمليّة الخلق مؤذن بتفسّخ "الدّلالة" بمعناها المعياريّ المتعارَف. يقول أدونيس:

"أَخْلِقُ /

لا أَخْلِقُ إلاّ شُقُوقًا و انْصِداعَاتْ."[46]

حسبنا، إذن، أن نختم ببعض خصوصيّات الخطاب السيميائيّ كما تمثّله (بارط) (R.Barthes): "فلن يتعلّق الأمر إلاّ بالوسائل الكفيلة بمراوغة الخطاب ومكافحة رسوخه والتّخفيف من وطأته. وأنا أزداد اقتناعا، كلّما كتبتُ ودرّست، أنّ العمليّة الأساسيّة لمنهج التحرّر هذا هو التّذرات عند الكتابة، والاستطراد عند العرض، أو لنقل بتعبير أكثر التباسا: **التّجوال**."[47]

الإحالات:

1 - Barthes; Eléments de Sémiologie , Paris, Seuil - 1964

- Greimas, -Du sens- Essais sémiotique ; Paris, Seuil, , 1970

- Searle .J.R.,Les actes de langage , Paris, Collection savoir Hermann-, 1972

- Jacques Moeschler et Anne Reboul ,Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique , (Linguistique et Pragmatique),Paris ,Editions du Seuil, Octobre 1994

2 -رولان بارط، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، تقديم عبد الفتاح كيليطو، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص 12

3- محمّد بن مكرّم بن منظور، لسان العرب، ، بيروت ، دار صادر، (د.ت)، مجلّد 12، ص 312، مادة (سوم).

4 - أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللّغة، حقّقه وقدّم له د. منير يعلس،بيروت، دار العلم للملايين، 1987، ج2 (ص 863، ص 1074)

5 - محمّد بن عليّ التّهانوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات العلوم والفنون، تحقيق علي دحروج ، سلسلة موسوعات المصطلحات العربيّة و الإسلاميّة،بيروت ، مكتبة لبنان، 1966، مجلّد 1 ص 683

6 - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت 1981، مجلّد 1 ، ج 2 ، ص 936.

7 - محيي الدين بن عربي ، الفتوحات المكّيّة ، بيروت، دار صادر ، د.ت ، ج2 ص 135.

8 - ابن خلدون، المقدمة ، (الفصل الثّالث والعشرون: في علم الكيمياء) ، ص 557

9 - شاكر عبد الحميد ،الحلم والكيمياء والكتابة ، مجلّة فصول ، مجلّد 7 عدد 41 ، أكتوبر 1986 ، ص 173

10 - محيي الدّين بن عربي،لطائف الأسرار، تحقيق أحمد زكي عطيّة و طه عبد الباقي سرور،بيروت، دار الفكر 1961، ، ص 129.

11 - أبو عبد اللّه محمد الخوارزمي ،مفاتيح العلوم، تقديم .جودت فخر الدّين، بيروت، دار المناهل ، 1991 ، ص 225

12 - عبد الرّحمن بن خلدون ،المقدّمة ،بيروت، دار الجيل ، د. ت، ص 519،

13 - أحمد بن عليّ البوني ، شمس المعارف الكبرى،بيروت، دار المحجّة البيضاء 2001، ص 15

14 - شاكر عبد الحميد ،الحلم والكيمياء والكتابة ، مجلّة فصول ، مجلّد 7 عدد 41 ، أكتوبر 1986، ص 174

15 - محيي الدين بن عربي، رسائل (كتاب اصطلاح الصوفيّة)، تقديم محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدّين العربي، دار صادر ، ط1 بيروت 1997، ص539

16 - حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، ط. كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، ط1 2005-، (فصل: الصّورة الإشهاريّة بين المقاربة السيميائيّة والمقاربة الحجاجيّة)، ص 236

17 -T.Todorov .Le nombre, la lettre , le mot, Poétique, N1, Paris,Editions du Seuil; 1970, p 104

*- مخبورة : دسمة أو طيّبة ، يعني بذلك أنّها حكمة ذات حقيقة جميلة وان كانت خفيّة.

18 - أبو حيّان التوحيدي ،الإشارات الإلهيّة ، تحقيق وداد القاضي ، بيروت، ط دار الثقافة ، د. ت ، ج1 ص5.

19 - أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم، الفهرست، بيروت، مكتبة خياط، د.ت، ص 10.

- TzvetanTodorov ,Le nombre, la lettre, le mot; Poétique , N01-1970, p 10420

21 -Todorov ,Le nombre, la lettre, le mot; p 104

22 -Le nombre, la lettre, le mot; p 105

23 - Le nombre, la lettre, le mot;, p 105

24 - إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء ، رسائل ، تحقيق عارف تامر، بيروت- باريس، منشورات عويدات، 1995، ج3، ص 116.

25 - ابن منظور ،لسان العرب ، مقدّمة (باب في ألقاب الحروف وطبائعها وخواصّها) ، ص 27

26 - شاكر عبد الحميد ،الحلم والكيمياء والكتابة ، مجلّة فصول ، مجلّد 7 عدد 41 ، أكتوبر 1986، ص 174

27 - خليل الخوري ، الكيمياء والشّعر، مجلّة آفاق عربية ، عدد 2 ، بيروت 1979 ، ص 83.

28 - ابن خلدون، تاريخ ، (فصل في الأسرار الخفيّة في الارتباطات الحرفيّة)، مجلّد 1 ج 2 ص 969

29 - رولان بارط، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، تقديم عبد الفتاح كيليطو، الدّار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص 21

30 - أدونيس (عليّ أحمد سعيد)، الكتاب: أمس المكان الآن ، بيروت ، دار الساقي ، 1998، ص 53

31 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، بيروت، دار الجيل، دت، ص 368.

32 - Encyclopédie de l'Islam, Paris, Editions G.P Maisonneuve La rose- S.A ,1975 Tome II, p386-387, (DJAFR) ، كما ينقل ابن عربي عن عليّ بن أبي طالب قوله: "إنّ ها هنا – وضرب على صدره بيده- لَعلُوما جمّة، لو وَجدتْ لها حَمَلَة." لطائف الأسرار، ص 37.

33 - ابن خلدون، تاريخ . (فصل في ابتداء الدّول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمًّى الجفر")، المجلّد 1، ج2 ، ص 938

34 - أدونيس، تنبّأ أيّها الأعمى ، ص 185- 186 ، و "قصّابين" قرية ساحليّة شمال سوريا، فيها ولد أدونيس ونشأ.

35 - أدونيس ، فاتحة لنهايات القرن، بيروت، ط 11دار العودة ،1980، ص37

36 - الشيخ جعفر نقدي (قاضي البصرة) ، مقال "الحساب الأبجدي" ، مجلّة الثريّا التونسيّة، ديسمبر 1946 .

37 - أدونيس ، الأعمال الشعرية الكاملة ، (والفضاء ينسج التأويل) ، مجلد 2 ص 421.

38 - سورة البقرة، الآيتان 1 و 2.

39 - سورة الطّور، الآيات 1 و 2و 3.

40 - ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 1 ص 60.

*- علم اليقين: ما أعطاه الدّليل." / " عين اليقين: ما أعطته المشاهدة والكشف." ،رسائل ابن عربي، كتاب اصطلاح الصّوفيّة، ص 411.

41 - ابن خلدون ، المقدّمة ، ص525.

42 - سورة الرّوم، الآيات من1 إلى4.

43 - الحروف العاليات هي الشّؤون الذّاتيّة الكامنة في غيب الغيوب كالشّجرة في النّواة." التّهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، تحقيق علي دحروج ، سلسلة موسوعات المصطلحات العربيّة و الإسلاميّة، مكتبة لبنان، بيروت 1966، ج3 ص 362.

44 - أبو الحسن بن علي الجرجاني، التعريفات ،الدار التونسيّة للنشر 1971، ص 46

45 -; Todorov, Recherche sur le Symbolisme linguistique ,L' épargne et le non- sens Poétique , N18 Paris 1974, p 233- 235

46 - أدونيس، الأعمال الشعرية الكاملة، كتاب القصائد الخمس، مجلّد 1 ص 96.

47 - رولان بارط، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، تقديم عبد الفتاح كيليطو، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص 21